بين يدى الكتاب

كثيرون هم إخوانى من أهل التاريخ الحديث الذين أنكروا علىَّ إقدامى على الكلام فى موضوع هو من صميم اختصاصهم ، ورأوا فى ذلك لونًا من التدخل غير المقبول ، فى عصر يقوم فيه العلم على التخصص .. وما دام للتاريخ الحديث أربابه ، فما شأن مؤرخ الإسلام هذا وتاريخ مصرالحديث يوغل فيه ؟..

وأبدأ فأقول إنهم على الحق فى هذا الكلام ، وأثنِّى فأعتذر إليهم عن اقتحام محرابهم والجرأة على الصلاة فيه ، فنحن فعلاً فى زمن تخصص دقيق ، وما كان ينبغى لمثلى أن تكون له قدم فى ميدان تاريخ العرب الحديث..

ولكننا ـ معاشر المؤرخين ـ نغادر اليوم ـ شيئاً فشيئاً ـ عصر التخصص الدقيق هذا ، بعد أن تبين لنا أنه لا ينفع المؤرخ فى كثير ؛ لأن التاريخ البشرى كله ميدان واحد ، وتاريخ العرب كله جزء لا يتجزأ من هذا الميدان الواسع . وتاريخ مصر ـ بالذات ـ باب واحد مترابط الفقرات ، ومن العسير ـ فى يومنا هذا ـ أن تكون مؤرخاً متمكناً من تاريخ الإسلام وحضارته إلا إذا كنت على علم وثيق بالتواريخ العالمية القديمة والوسطى والحديثة ؛ لأن تاريخ الإسلام لم يدر على جزيزة نائية منعزلة وسط المحيط ، وإنما هو يدور فى جزء من العالم هو مركز الاتصال بين أقطاره ، وشعوب الإسلام ولدت وعاشت فى قلب الدنيا ووسط شعوب الدنيا كلها ، ولا يستطاع فهم الجزء فهماً صحيحاً إلا إذا عُرف الكل معرفة جيدة.

أقول هذا وأنا أعرف مثلاً أن ج. ب. بيورى مؤرخ العصور القديمة كان أستاذاً فى التاريخ الحديث ، وأن يعقوب بوركهارت مؤرخ النهضة الأوربية كان أستاذاً فى التاريخ القديم ، وأن محمد شفيق غربال شيخ شيوخ مصر الحديثة له مؤلَّف ممتاز عن تاريخ مصر القديمة . وذلك كله راجع إلى أن ميدان التاريخ لا يقبل التخصص إلا من قبيل توزيع العمل ، فأنا أدرس تاريخ الإسلام ، ولكنى أقرأ فى تاريخ العالم كله ، وقبل أن أكتب هذه الدراسات قرأت قراءة واسعة فى تاريخ اليابان ، لأقارن بين نهضة شعبها ونهضة أمة العرب ، ولأعرف لماذا كان توفيق اليابانيين أكبر بكثير مما وصلنا إليه نحن العرب .

فإذا قبل منى أهل التاريخ الحديث هذا الاعتذار وأجازوا هذا التبرير ، بادرت أؤكد لهم أننى ما أردت بهذه الدراسات أن أوسِّع لنفسى مكاناً بينهم ، وإنما أردت ـ فحسب ـ أن أدوِّن آراء ونظريات ومعلومات عن تاريخ مصر الحديث تجمعت لى مع الزمن ، ورأيت من الخير أن أدوِّنها ، فقد يكون فيها نفع لبعض الناس .

يتضمن هذا الكتاب أربع مجموعات من الدراسات عن ثورة سنة ١٩١٩م ، التى تعتبر حادثاً فاصلاً فى تاريخ مصر وأمة العرب جميعاً ، ولكل مجموعة منها فكرة رئيسية أو نظرية محددة اجتهدت فى شرحها وتوضيحها .

فالمجموعة الأولى خُصِّصت لدراسة طبيعة ثورة سنة ١٩١٩م ، والتعرف على رجال الجيل العظيم الذى قام بها أو نشأ فى أحضانها . وهو جيل جدير بالإعجاب حقاً، ضمَّ الزعيم السياسى والعالم القانونى والأديب المبدع والشاعر المجيد والفنان الأصيل والاقتصادى الضليع والطبيب البارع والمهندس القدير .. جيل عظيم حقاً يبدو لناظره وكأنه جيشٌ لجبٌ أخرجته مصر لتشق به طريقها إلى الحرية والنهوض . وأنت لا تدرى كيف نجموا كلهم دفعة واحدة ، وطفروا من ظلام ماضٍ راكد ؛ ليجددوا شباب مصر الخالدة فى كل ميدان . والرأى الذى ذهبت إليه وحاولت أن أثبته فى فصول هذه المجموعة هو أن شعب مصر تجمَّع على نفسه خلال عصور الظلام التى مرت به ، واحتفظ بقواه كاملة ، حتى إذا أتيحت الفرصة المواتية ، تفتَّح هذا الشعب الأصيل ، وأخرج هؤلاء العباقرة ليشقُّوا له الطريق . وقد لاحظت أن جانباً كبيراً من أولئك الرجال خرجوا من بطون الريف ، أى: من صميم التربة المصرية ، وخروجهم على هذه الصورة يؤكد لنا حقيقة جهدتُ فى إثباتها ، وهى أن شعب مصر صلب خصب قادر دائماً على تجديد نفسه وصنع الحضارات . وعند التدقيق نتبين أن هذا الشعب الطيب هو الذى صنع جيل سنة ١٩١٩م ، ولم يكن هذا الجيل أو أحد من زعمائه هو الذى صنع الثورة . وبينت كذلك كيف أن هذا الجيل أنهض أمة العرب كلها بعد ذلك ، وحاولت ـ على قدر ما استطعت ـ أن أبحث عن سر ظهوره ، ومدى ما قام به من عمل ما زلنا نعيش على آثاره إلى اليوم .

والمجموعة الثانية تبحث فى موضوع نصيب الأقباط فى ثورة سنة ١٩١٩م ونهضة مصر الحديثة ، وقد اجتهدت فيها أن أدلِّل على أن اتحاد شعب مصر المسلم والقبطى كان السبب الرئيسى فى إنهاض مصر العظيمة وإخراجها إلى عالم الحرية

والنور ، وأن كلاً منهما تقدَّم فى بسالة وإيثار فقدَّم لمصر خير ما استطاع . وبدون هذا الاتحاد ما كان يمكن لمصر أن تحقق خطوة على طريق التحرير.

والمجموعة الثالثة تبحث فى أعمال الفدائيين المصريين ، الذين كان الناس يعتبرونهم ـ إلى حين قريب ـ مجرمين سياسيين ، حتى عبدالرحمن الرافعى حَمَلَ عليهم وتبرأ من أعمالهم ، وما هم ـ فى الواقع ـ إلا أبطال يرجع إليهم أكبر الفضل فى توفيق ثورة ١٩١٩م .

والمجموعة الرابعة تدور حول نظرية جديدة أيضاً ، وهى أن تصريح ٢٨ فبراير١٩٢٢م وكل ما فعلته بريطانيا بعده كان له هدف واحد : هو فصل السودان عن مصر ، وتحويله إلى مستعمرة بريطانية خالصة .

فالمجموعات الأربع تقوم على أربع نظريات .

ولست أزعم ـ بطبيعة الحال ـ أن هذه النظريات كلها صواب ، ولكننى بذلت جهدى على كل حال ، وحاولت أن أبعث فى دراسات تاريخ مصر الحديثة روحاً جديدة ، أو قل حركة جديدة ، تخرجه عن الروتينية القاتلة التى تكاد تستبدُّ بميدان البحث التاريخى كله عندنا .

وهذه الصفحات كلها ، ما هى ـ فى الحقيقة ـ إلا سطور من الحب لمصر .. وطننا الأعز ، مهد الحضارات .. كتبتها فى ساعات من الأسى ، دون أن يخامرنى الشك لحظة واحدة ، فى أن هذا البلد الأعز سيخرج من سواد الليل الرابض إلى ضوء الغد الباهر ، بالحب وبالعمل وبالجهد وبالتضحية.

هذه الصفحات ـ إذن ـ تحية لمصر ، وتحية لكل من يحبها ويعمل لها ، وتحية لجيل جديد يسير بهذا الوطن ـ مشتركاً مع رجال أمة العرب جميعاً ـ إلى المستقبل السعيد ؛ بإذن الله..

وبينما كنت أراجع التجارب الأخيرة من هذا الكتاب قامت حرب رمضان ١٣٩٣هـ / أكتوبر ١٩٧٣م ، وإذا بالمقاتلين المصريين الذين خرجوا من بطون الريف ، يقومون بأعمال من البطولة تفوق كل ما قلته وفصَّلته فى هذا الكتاب ، ورأى الناس أبناء مصر يعصفون بعدو لئيم مستأسد ، ويقتحمون النار والموت فى سبيل مصر الخالدة ، فيكتبون فى تاريخ الحروب الحديثة صفحات جعلت عباقرة الحرب فى الدنيا كلها يراجعون

آراءهم ونظرياتهم التى دارت عليها أفكارهم عن الحروب الحديثة والعدة لها.

وقد كان بعض أهل التاريخ يحسبون أننى جاوزت الحد فى الكلام عن شعب مصر وما استطاع أن يحققه سنة ١٩١٩ م ، فرأوا فى أكتوبر١٩٧٣م أننى ـ فى الحق ـ لم أقل إلا القليل ، وأتت الحوادث تثبت ما ذهبت إليه من أن المصرى العادى الذى غضب على بريطانيا وثار فى وجهها من نصف قرن ، قد زعزع أركان إمبراطوريتها وأنذرها بالسقوط ، كما أن جنود مصر الذين عبروا القناة حملوا إلى الدنيا بشرى الخلاص من نكبة إسرائيل ووهم الصهيونية . وكما صنع جيل سنة ١٩١٩م شيئاً يشبه المعجزة ، فكذلك جيل ثورة ١٩٥٢م صنع شيئاً آخر هو فى ذاته فتحٌ فى تاريخ البشر ، وها هى ذى شعوب إفريقيا قد تفتحت أعينها على العالم الجديد ، فأقبلت تسعى إلى مصر وأمم العروبة ، ليعمل الكل معاً على بناء عصر جديد تنبَّأ بشىء منه المؤرخ الإنسانى ذو النظر العميق آرنولد توينبى .

وقد أعاننى كثيرون بما لديهم من العلم ، أخشى أن تخوننى الذاكرة فأنسى بعضهم ، ولكنى لابد أن أذكر الأخ الأديب حلمى مراد الذى بادر فأعاننى بكل ما عنده ، وتلميذى محمد خلاَّف الذى ظل يوافينى بالكتب ومقالات الصحف ، وصديق العمر مصطفى عبد المجيد الذى والى هذا الكتاب بعمله وجهده.

ومن محاسن الصدف أننى كنت أكتب هذه الفصول فى الكويت أيام كان الأستاذ العلاَّمة الدكتور عبد العزيز كامل مديراً لجامعتها ، فكنت أعرض عليه بعض ما أنتهى إليه فيقوم بيننا حوله حوار ، وقد أفدت من آرائه وأنظاره كثيراً ، وهو فضل لابد أن أسجله بين يدى هذا الكتاب بالشكر والتقدير.

وأختم هذه السطور بالشكر للأخ الكريم أنيس منصور الأديب الكاتب العالم المبدع رئيس تحرير مجلة « آخر ساعة » الذى فتح لى صفحاتها لأنشر على الناس هذه الدراسات ، ولا أعدو الواقع إذا قلت إنه صاحب الفضل الأول فى تشجيعى على المضىِّ فيها .

وسلام من الله على كل من يكرمنى بقراءة هذه الصفحات ..

والحمد لله سبحانه ، وهو ولى التوفيق .

الكويت ـ فى ديسمبر ١٩٧٣م .

د/حسين مؤنس